ركائز حجية السنة

العناية بالركائز الدالة على حجية السنة أمر في غاية الأهمية، ولا يتم الاحتجاج على المخالف في هذا الباب برد الشبهات فقط، بل لا بد من تأصيل القول بحجية السنة.

وأهم الركائز الكبرى التي يعتمد عليهت في ذلك:

- القرآن.
- التواتر.
- الإجماع.

الركيزة الأولى
دلالة القرآن على حجية السنة

آيات القرآن الدالة على حجية السنة تدل على معنيين مكملان لبعضهما، لا بد منهما معا:

الأول: دلالة القرآن على أصل حجية السنة.

الثاني: دلالة القرآن على دوام حجيتها.

ويمكن إثبات هذين المعنيين بخمسة طرق:

الطريق الأولى: دلالة الأوامر القرآنية العامة بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع إطلاق الطاعة دون تقييد.

الطريق الثانية: دلالة القرآن على أن السنة وحي.

الطريق الثالثة: دلالة القرآن على أن السنة بيان له.

* وهذه الطرق الثلاث تثبت أصل حجية السنة.

الطريق الرابعة: دلالة القرآن على حفظ السنة.

الطريق الخامسة: لزوم حفظ بيان القرآن.

* وهاتان الطريقان تثبتان دوام حجية السنة.

الطريق الأولى: الأمر العام لجميع الأمة بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع إطلاق الطاعة دون تقييد.

والاستدلال بهذا الطريق يُبنى على مقامات ثلاث مترابطة:

المقام الأول: عموم الخطاب القرآني لهذه الأمة.

أي أن أوامر القرآن أوامر عامة، تشمل الناس في كل زمان، وهذا مقتضى كون النبي صلى الله عليه وسلم رسولا إلى الناس كافة.

وهذا أمر لا ينازع فيه أحد، حتى من منكري السنة.

المقام الثاني: مجيء الأمر القرآني العام بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

بناء على عموم خطاب القرآن للناس في كل زمان، فإن أمر القرآن بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم هو أمر عام بطاعته في كل زمان.

المقام الثالث: إطلاق لفظ (الطاعة) و(الاتباع) للرسول في الآيات القرآنية.

لم تقيد الآيات الآمرة بطاعة النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه بطاعته واتباعه في أمر دون آخر، بل دلت على وجوب طاعته في كل شيء، ولو أراد الله تعالى أن نطيع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأمور فقط لذكر ذلك صراحة.

بل إنه كرر الأمر باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم بألفاظ عدة بدون تقييد، كما في قوله: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)، (من يطع الرسول فقد أطاع الله)، (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم).

* فإذا ثبتت المقامات السابقة فإنه من المعلوم أنه لا يمكن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلا باتباع الأخبار الثابتة عنه.

الطريق الثانية: دلالة القرآن على أن السنة وحي.

يقرر منكرو السنة أن الوحي في نص القرآن فقط، وأن السنة ليست وحيا.

لكن آيات القرآن قد دلت صراحة على أن الله تعالى قد أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأمور غير القرآن، وقد بلّغَنا النبي صلى الله عليه وسلم تلك الأمور.

من أهم المصنفات في تقرير هذا الأصل: ١ كتاب «السنة وحي» للشيخ خليل ملا خاطر. ٢ كتاب «الوحي الإلهي في السنة النبوية» لعماد الدين عبد السميع حسن. ٣ كتاب «السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقرآن» لأبي لبابة بن الطاهر حسين.

وهذه بعض الوجوه التي جاءت في القرآن دالة على أن السنة وحي:

الوجه الأول: الإخبار بإنزال الحكمة المعطوفة على الكتاب.

الوجه الثاني: الإخبار بأن الله تكفل ببيان القرآن، وأخبر عن رسوله بأنه يبين للناس ما نزل إليهم.

الوجه الثالث: نصوص قرآنية متعددة تدل على نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم في مقامات معينة بأحكام وأخبار ليست مذكورة في نص القرآن، **منها:**

١. دلالة الإخبار بنزول الملائكة.
٢. دلالة آيات تحويل القبلة.
٣. دلالة آيات سورة التحريم.

٤. دلالة فتح مكة مع آيات تحريمها.

الوجه الأول: الإخبار بإنزال الحكمة المعطوفة على الكتاب.

تكرر ذكر كلمة (الحكمة) في القرآن كثيرا، وتفسيرها يكون بحسب السياق، فقد تفسر بالنبوة، أو الفهم الصحيح، أو بشيء من الوحي المنزّل.

وقد ذكر الله في القرآن أنه أنزل الحكمة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وفي أكثر تلك المواضع تذكر الحكمة معطوفة على القرآن، فما المراد بالحكمة؟

المراد بها السنة، للأمور التالية:

- هذا ما ذهب إليه أكثر المفسرين من مختلف المذاهب والمشارب.
- عطف الحكمة على القرآن يقتضي التغاير بينهما، وهذا هو الأصل.
- دل سياق بعض الآيات على أن المراد بالحكمة: السنة.
- قال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة..)، وقد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم علّم أصحابه نص القرآن، (آياته) وعلمهم كذلك أمورا غير مذكورة في نص القرآن، كصفة الصلاة ومواقيت الأذان وغير ذلك، فلا بد أن تكون هذه من الحكمة التي علمهم إياها.

* فهم المنزِع الذي نزع منه المفسرون لتفسير الحكمة بالسنة= مهم في مقام المناظرة.

* ظن بعض منكري السنة أن الإمام الشافعي هو أول من قال إن الحكمة هي السنة، ثم أعادوا ذلك لأسباب فكرية مذهبية.

وهذا غير مسلّم ؛ فقد ورد تفسير الحكمة بالسنة عن قتادة بن دعامة السدوسي، والحسن البصري، وقد توفيا قبل ولادة الشافعي. وورد هذا التفسير كذلك عن مقاتل بن حيان.

إلا أن الشافعي هو أشهر من قرر هذا من المتقدمين، وقد ناظر فيه، ودافع عنه.

الوجه الثاني: الإخبار بأن الله تكفل ببيان القرآن، وأخبر عن رسوله بأنه يبين للناس ما نزل إليهم.

دلت آيات من القرآن على أن الله تعالى تكفل ببيان القرآن، وجعله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

كما في قوله تعالى: (ثم إن علينا بيانه) [سورة القيامة]، وقوله: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) [سورة النحل].

الوجه الثالث: الآيات الدالة على نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم في مقامات معينة بأحكام وأخبار ليست مذكورة في نص القرآن.

دلت بعض الآيات على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوحي إليه ببعض الأحكام والأخبار التي لم تذكر في القرآن.

والاستدلال بهذه الآيات على درجتين:

- عدم انحصار الوحي في القرآن.
- أن من سنة النبي صلى الله عليه وسلم ما هو وحي.

فمن هذه المواضع:

- آيات الإخبار بنزول الملائكة في بدر، (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)، فالآية أخبرت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبرهم بنزول الملائكة، وهذا كان منه عليه الصلاة والسلام قبل نزول هذه الآية، لأن الآية أخبرت عن حدث ماض، وهذا الإخبار لا يكون إلا بوحي.
- آيات تحويل القبلة. من المعلوم أن المسلمين قد صلوا إلى الشام طوال الفترة المكية، وأول مَقدَمِهم إلى المدينة، وقد نزلت الآيات بعد ذلك بتحويل القبلة إلى الكعبة، ومن المعلوم أنه لا توجد آيات تأمر بالأمر الأول، وهو استقبال الشام، واستقبال الشام لا يكون إلا بوحي، فدل ذلك على نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بغير القرآن.
- قوله تعالى في سورة التحريم: (وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير). دل قوله: (وأظهره الله عليه)، وقوله: (نبأني العليم الخبير) على نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم بغير القرآن، لأن هذا الإنباء غير مذكور في القرآن.
- من المعلوم أن مكة محرمة، لا يحل القتال فيها، كما قال تعالى: (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها..)، ومن المعلوم كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حاصر مكة بالجيش والسلاح، ثم فتحها، وقال: «إنما أحلت لي ساعة من نهار»، وهذا الإذن الرباني غير وارد في القرآن، ولا يمكن أن يستحل النبي صلى الله عليه وسلم الحرمَ إلا بوحي.

الطريق الثالثة: دلالة القرآن على أن الرسول صلى الله عليه وسلم مبين له.

وإثبات هذا مبني على ثلاثة أصول:

- أن الله تكفل ببيان القرآن، (ثم إن علينا بيانه)، وأخبر بأن ذلك سيكون على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.
- أن القرآن فيه أوامر مجملة لا يمكن امتثالها إلا بمعرفة بيان الرسول فيها، كالأمر بالصلاة والحج.

– التواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه قد بين كثيرا مما أجمل في القرآن، كبيانه لتفاصيل الصلاة والحج.

التكامل بين الأصول (الأوجه)الثلاثة

كل وجه من هذه الأوجه الثلاثة كاف وحده لإثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مبينا لمعاني الكتاب؛ إلا أنه عند نقاش المخالف قد يحتاج المحاور إلى استخدام دلالتها مجتمعة، لاحتمال استغلال المخالف لأقوال قليل من المفسرين الذين اقتصروا في تفسير البيان المذكور في آيتي النحل والقيامة على ذكر وجه واحد من أوجه البيان، وهو: بيان اللفظ (البلاغ).

وفضلا عن كون فعلهم هذا انتقالا خاطئًا في الاستدلال، فإن ثبوت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بين معاني الكتاب ليس منحصرا في دلالة هاتين الآيتين، بل إن هناك تكاملا بين الأوجه الثلاثة في الدلالة على المقصود.

الطريق الرابع: دلالة القرآن على حفظ السنة

هذا المعنى له أهمية كبيرة لا تقل عن أهمية إثبات أصل حجية السنة، فإن المخالف قد يقر بدلالة الآيات على حجية السنة، ثم ينازع في حفظها وطريقة نقلها.

والأدلة على هذا الأمر متفاوتة المراتب؛ فبعضها دلالته ظاهرة وبعضها ليست كذلك، وبعضها متفق عليها وبعضها مختلف فيها.

الدليل الأول: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا).

وجه الدلالة: أمرت هذه الآية المؤمنين في كل زمان برد نزاعاتهم إلى الكتاب والسنة، فإذا خلا زمان ما من حفظهما فإنه لا يمكن امتثال الأمر الإلهي في ذلك الزمان.

إثبات وجه الدلالة: يمكن إثبات وجه دلالة هذه الآية على المقصود من خلال ثلاث خطوات:

١. **إثبات عموم الآية.** وذلك من خلال أمور:

– وجهت هذه الآية الخطاب (للذين آمنوا) في كل زمان، وهذا يعم كل من اتصف بالإيمان في أي زمان، لا سيما وأن لفظ (اللذين) من ألفاظ العموم؛ فلا يصار إلى تخصيص الخطاب بزمان معين إلا بدليل، فكما أن قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا) عام للمؤمنين في كل زمان، فكذلك هذه الآية.

– عموم الخطاب لكل زمان هو المقتضى الضروري لكون النبي صلى الله عليه وسلم خاتما للأنبياء، ولكون القرآن حجة على كل البشر.

– أجمعت الأمة على عموم الخطاب في هذه الآية، وممن نقل ذلك: ابن حزم.

٢. إثبات شمول قوله سبحانه (فردوه إلى الله والرسول) للكتاب والسنة:

– في تكرار لفظ (وأطيعوا) في الآية إشارة قوية إلى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم مقصودة لذاتها، وأنها غير محصورة فيما يبلغه من القرآن.

– قد أمر الله تعالى برد الأمر إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم عند التنازع، ومن المعلوم ضرورة أننا لا نستطيع الرد إلى الله مباشرة لانقطاع الوحي، فتعين أن يكون الرد إلى كتاب الله، وإذا كان الرد إلى الله يكون بالرد إلى كتابه، فإن الأليق بالسياق أن يكون الرد إلى الرسول هو الرد إلى حكمه وقضائه، وهذا القضاء يسمع منه مباشرة لمن لقيه عليه الصلاة والسلام، ويبلغ لمن غاب عنه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرسل الرسل بقضائه وحكمه.

– قد أمرت الآية بالرد فقط، ولم تذكر مشافهة ولا لقاء.

– لا خلاف بين المسلمين في أن الرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إلى سنته بعد وفاته.

٣. إثبات احتياج عموم أهل الإيمان في كل الأزمان للكتاب والسنة في فصل النزاعات.

وذلك لأن الله تعالى أمر برد النزاعات إلى الكتاب والسنة، والنزاعات تتجدد في كل حين، وبما أن الله تعالى جعل ذلك الأمر علامة على الإيمان وشرطا فيه، فإنه لا بد للناس من حفظ الكتاب والسنة حتى يتحاكموا إليهما، فيصح إيمانهم.

الدليل الثاني: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون).

الاستدلال بهذه الآية هنا قائم على أن لفظ الذكر يشمل الكتاب والسنة، أما على القول بأن الذكر هو القرآن فقط، فإن دخول السنة فيه يكون باللازم، وسيأتي إن شاء الله.

والكلام هنا على المقام الأول.

وجه الدلالة: كلمة (الذكر) لا تنحصر دلالتها في الدلالة على القرآن وحده، بل تشمل عموم الوحي، ومنه السنة.

إثبات وجه الدلالة:

لإثبات دلالة هذه الآية على حفظ السنة لا بد من إثبات أمرين:

الأول: أن الذكر المنزل من عند الله لا ينحصر في القرآن وإنما يشمل عموم الوحي.

الثاني: أن السنة من الوحي الذي أنزله الله، وقد تقدم إثبات هذا.

أما الأول فيدل عليه قوله تعالى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)، فإن المراد بأهل الذكر هنا: اليهود والنصارى... فقد استعمل لفظ (الذكر) هنا في الدلالة على غير القرآن [التواراة والإنجيل]، وهذا يدل على

عموم دلالة لفظ (الذكر)، فهو يدل على كل وحي أوحاه الله إلى رسله، ويدخل في هذا السنة.

وقد حكى ابن حزم اتفاق أهل اللغة والشريعة على أن كل وحي نزل من عند الله تعالى فهو ذكر.

الدليل الثالث: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

وجه الدلالة: دلت هذه الآية على أن الله تعالى قد تكفل بإظهار هذا الدين، والسنة من الدين، وهذا التكفل بالإظهار يتضمن الحفظ.

إثبات وجه الدلالة:

يلزم أمران لإثبات دلالة الآية على المراد:

أولا: أن السنة من الدين، وقد قد سبق بيانه من وجوه.

ثانيا: أن إظهار الدين يقتضي حفظه، وهو ظاهر، فإنه لا يمكن أن يظهر الدين على الأديان الأخرى ويظل ظاهرا إلا إذا كان محفوظا.

الطريق الخامس: لزوم حفظ بيان القرآن

تقدم إثبات أن السنة مبينة للقرآن، وأنه يتعذر العمل ببعض أوامر القرآن دون الرجوع إلى السنة، وبناء على ذلك فإنه يلزم من حفظ نص القرآن: حفظ بيانه، [على القول بعدم دخول السنة في لفظ الذكر]، وذلك:

- لأنه لا يمكن امتثال تلك الأوامر إذا لم يحفظ البيان.
- ولأن وجود أوامر في القرآن لا يمكن العمل بها أمر غير ممكن، وفيه انتقاص من حكمة الله سبحانه.
- إذا لم يحفظ البيان فلا يمكن أن يكون القرآن كتابا هاديا للبشر في كل زمان.

الركيزة الثانية من ركائز حجية السنة
التواتر

قد وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار متواترة، لا تتوقف قدرة الاستدلال بها على التخصص في علم الحديث، لأنها بلغت مبلغا عاليا من التواتر، يفيد العلم ضرورة، فلا سبيل إلى إنكارها، كما أنه لا سبيل إلى إنكار وجود مدينة كبغداد مثلا.

وذلك كالأخبار التي تواترت عنه عليه الصلاة والسلام في عدد ركعات الصلاة، وأنها ذات ركوع وسجود، وكمناسك الحج، ونحو ذلك.

* التواتر المقصود هنا هو ما يعرف عند المتأخرين بالتواتر المعنوي، وإن كان قد يسمى عند بعض المتقدمين -كالخطيب- تواترا لفظيا.

أنواع الأخبار المتواترة المثبتة لحجية السنة ومكانتها في الإسلام

يمكن تقسيم الأخبار المتواترة التي تثبت حجية السنة إلى أنواع:

النوع الأول: تواتر أخبار الغيب عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قد علم بالضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأمور مغيبة، وهذا من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام.

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أنه وحده يعلم الغيب، وأنه لا يظهر أحدا من خلقه على علم الغيب، إلا أنه يُعلم بعض رسله ببعض المغيبات.

فعلم بذلك أن تلك المغيبات التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هي من عند الله تعالى، وبالتالي فهي وحي، وهذا الوحي لم يُذكر في القرآن.

* يستدل منكرو السنة بورود بعض المغيبات في السنة استدلالا معكوسا، فبدل أن يجعلوا ذلك دليلا على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم يجعلون ذلك سببا في رد السنة، لأنها أخبرت ببعض المغيبات، والغيب لا يعلمه إلا الله، وتناسوا أنه سبحانه أخبر أنه يُعلِم من شاء من رسله ببعض علم الغيب.

النوع الثاني: تواتر الأحاديث القدسية عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قد تواتر أن النبي صلى الله عليه وسلم تحدث بكلام نسبه إلى الله سبحانه، وهذا الكلام ليس مذكورا في القرآن، فدل هذا على كون السنة وحيا، لأنه لا سبيل إلى معرفة ما قاله الله سبحانه إلا بالوحي.

وليس المراد هنا الاستدلال بأفراد الأحاديث القدسية، وإنما المراد الاستدلال بمجموعها -وهو يفيد التواتر المعنوي- على أن النبي صلى الله عليه وسلم نسب كلاما إلى الله تعالى، وهذا الكلام ليس مذكورا في القرآن.

النوع الثالث: تواتر بيان النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أحكام القرآن، وقد تقدم.

الركيزة الثالثة
الإجماع

من المعلوم قطعا أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم يقضون بين الناس بسنته، في الحدود والنكاح وغيرها من أبواب الدين، سواء ذكر هذا القضاء في القرآن أم لم يذكر، ولم ينكر بعضهم على بعض في ذلك، وهذا متواتر عنهم تواترا معنويا.

فمن خالف سبيلهم فقد استحق الوعيد المذكور في قوله سبحانه: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)، والصحابة هم أولى من يدخل في (المؤمنين)، لما علم من عدالتهم وديانتهم، وقد زكاهم القرآن.

ثم إن الصحابة قد حرصوا على تبليغ السنة للتابعين، وهذا معلوم ضرورة كذلك.

فإجماع الصحابة والأمة على حجية السنة معلوم، ولا سبيل إلى التشكيك فيه.

وممن نقل الإجماع على حجية السنة: الإمام عبد العزيز الكناني، وابن حزم، وابن عبد البر، والعلائي، وابن القيم، والشوكاني، والمعلمي، والشيخ ابن باز، رحم الله الجميع.